كلمة التّحرير

في النّهضة: شروطها ومعوّقاتها

"إنّ مشكلة كلّ شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته".

مالك بن نبيّ

شكّلت فكرة النهضة والنهوض وما في معناهما من المفاهيم والمصطلحات، عبر تاريخ البشريّة المديد، لحظةَ وعي جماعيّ، تستنفر فيها الأمم كلّ قواها الماديّة والمعنويّة من أجل تجاوز أوضاع الانحطاط والتبعيّة والجمود، والتشوّف إلى بناء مشروع حضاريّ جديد قائم على الريادة والفعل التاريخيّ. ولم يحدث أن كانت النهضة في أيّ تجربة إنسانيّة مختزلة في وجه واحد من وجوه الحياة، بل بدت على الدوام تحوّلًا عميقًا في بنية الوعي والثقافة والقيم وأنماط التفكير والتّنظيم الاجتماعيّ فضلا عن التقدم التقنيّ والاقتصاديّ الخ... ولعلّ أكثر المصطلحات دلالة على هذا العمق والشمول معا مصطلح: "الانبعاث الحضاريّ" الذي يحيل على معاني الانتقال من حالة السّكون التاريخيّ إلى حالة الإنتاج والإبداع والتأثير. ولا أدلّ على ذلك من التجربة الأوربّيّة التي لم تكن الثورة الصناعيّة أولى إنجازاتها، بل مهّدت لها تحوّلات فكريّة وثقافيّة كبرى بدءاً بالحركة الإنسانويّة، فعصر الأنوار، حيث أصبح الإنسان مركزَ الكون، وغدا العقل أداة لفهم العالم وتغييره. وفي هذا السياق رأى فولتير أن تحرّر الإنسان يقوم على نبذ التعصّب والخرافة وسلطة الكنيسة، بينما انصبّ اهتمام ج. ج. روسّو على التربية أداةً لتكوين المواطن الحرّ القادر على بلورة الإرادة العامّة. أمّا مونتسكيو، فقد تركّز نظره على معالجة بُنى السلطة، فأطلق دعوته الشّهيرة إلى الفصل بين السلطات منعاً للاستبداد بوصف ذلك شرطا لقيام الدولة الحديثة، وربط أ. كونت من جهته بين تقدّم المجتمعات وسيادة العقل العلميّ، والانتقال من التفكير اللاهوتيّ والميتافيزيقيّ إلى التفكير الوضعيّ. وعلى هذا النحو كشفت هذه التجربة الحضاريّة أنّ النهضة لا يمكن اختزالها في بُعد واحد، إذ هي تقوم ضرورة على التكامل بين الثقافة والسياسة والعلم والتربية والاقتصاد، وبها جميعا يكون المجتمع قادرًا على إنتاج المعرفة وتنظيم السلطة وتحرير الإنسان في آن معًا.

ومن هذا المنطلق يمكن القول إنّ أولى ركائز النهضة تتمثّل في تحرير العقل من التقليد والجمود، بوصفه، نعني العقل الحرّ، الشرط الضروريّ لكلّ تحول حضاريّ حقيقيّ وعميق، أمّا الأمم التي يَقعُد بها الكسلُ وخوفُ المغامرة والعجزُ عن مساءلة مسلّماتها، فإنّها تظلّ أسيرة شرنقة الماضي بعيدة عن أي خلق أو إبداع.

لم يغفل مفكّرو النهضة العربيّة الحديثة عن هذه المسألة منذ القرن التاسع عشر، فكان أن دعا جمال الدين الأفغاني إلى مقاومة الاستبداد والاستعمار بمثل الحماس الذي دعا به إلى إحياء روح الاجتهاد وتجديد العقائد، بينما سعى تلميذُه محمد عبده إلى التوفيق بين الإسلام من جهة، والعقل والعلم والمدنيّة من جهة أخرى، نافياً عن الدين في ذاته أيّ تخلّف، محمّلا الفقهاء وفكرَهم الدينيّ المنفصل عن الواقع مسؤوليّةَ الانحطاط والجمود. وجعل خير الدين التونسي، من جانبه، من إصلاح التعليم والإدارة والانفتاح على التجربة الأوروبيّة مدخلًا للنهوض، دونما حرج من استلهام التجربة الغربيّة في ما لا يتعارض والشريعةَ الإسلاميّةَ، وصرف قاسم أمين نظرَه إلى بعد آخر من أبعاد النهضة، فوصل بين الحاجة إلى تقدّم المجتمع من جهة، وتحرير المرأة من جهة أخرى، إيمانا منه بأنّ المجتمع الذي يُقصي نصف طاقته البشريّة لا يمكن أن ينخرط في الحضارة الحديثة بصورة فعّالة. وهكذا اتّسمت النهضة العربيّة بتعدّد أبعادها الإصلاحيّة، فجمعت بين الدعوة إلى إصلاح الفكر والدين والسياسة والتعليم والمجتمع معًا.

لم يكن طريق النهضة العربيّة معبّدا ولا ممهّدا، بل وقفت في وجهه معوّقات بنيويّة حالت دون تحقيق نهضة مكتملة. وفي مقدّمة تلك المعوّقات الاستبداد السياسيّ، إذ أنّ غياب الحريّة يخنق روح المبادرة والإبداع، ويحوّل المجتمع إلى فضاء للخوف والطاعة العمياء بدل النقد والمشاركة. وهو ما كرّس له عبد الرحمن الكواكبي جلّ جهده الفكريّ، إذ اعتبر الاستبداد أصلَ كلّ فساد، لأنّ ضررَه لا يقف عند القمع السياسيّ، بل يتعدّاه إلى إفساد الأخلاق والعلم والدين والاقتصاد. أمّا الأميّة وضعف المنظومة التعليميّة فقد شكّلا عائقًا أساسيًا أمام بروز عقل عربيّ نقديّ.

أمّا الاستعمار فلم يكن بمنأى عن عرقلة فعل النهوض العربيّ، إذ عمل جاهدا، عبر الدسائس والمكائد والعدوان المكشوف وسياسات التخريب الداخليّ، على تعطيل مسار التطور الطبيعيّ للمجتمعات العربيّة، سعيا إلى إدامة سيطرته الاقتصاديّة، وتكريسا لنهج التبعيّة الثقافيّة وإضعاف المؤسّسات الوطنيّة. وهكذا كانت المجتمعات العربيّة تقاتل عدوّين عل جهتين في آن معا: الاستعمار الخارجي والتخلّف الداخليّ. وهو ما أنشأ الحالة التي أجملها مالك بن نبي في قوله: إنّ قابليّة المجتمعات للاستعمار ترتبط بأزمة حضاريّة داخلية تتمثّل في فقدان الفعاليّة الثقافيّة والأخلاقيّة، أي في عجز المجتمع عن تحويل أفكاره إلى قوّة تاريخيّة منتجة.

ومن معوّقات النهضة العربيّة في العصر الحديث التنابذ الحادّ بين أنصار الأصالة وأنصار المعاصرة، إذ ظلّ الفكر العربيّ ممزّقا بين التعلّق بالتراث ورفض الحداثة حدّ التقوقع، وبين الانبهار بالنموذج الغربيّ حدّ الاستلاب. وقد حاول محمد عابد الجابري تجاوز هذا الشطط عبر دعوته إلى نقد العقل العربيّ، وإعادة بناء العلاقة بالتراث والحداثة كليهما على أسس عقلانيّة، بينما رأى عبد الله العروي أنّ أزمة العرب هي أساسًا أزمة تأخّر تاريخيّ أفضى إلى عجز عن استيعاب شروط الحداثة السياسيّة والثقافيّة. وعلى

الطرف المقابل من هذه الدعوة، نبّه طه عبد الرحمن إلى أنّ الحداثة لا ينبغي أن تتحوّل إلى مجرّد تقليد أعمى للغرب، بل يجب أن تُبنى على أساس أخلاقيّ وروحيّ يحفظ خصوصيّة المجتمع، ولا ينبغي أن تكون النهضة محض استنساخ لنموذج جاهز، بل هي عمليّة تاريخيّة مركّبة تتطلّب قدرة على التفاعل النقديّ مع الذات ومع الآخر في الوقت نفسه.

وبناء على ما تقدّم، فإنّ النهضة العربية المنشودة لا يمكن أن تتحقّق عبر الإصلاحات الجزئيّة أو الشعارات أو الخطب والمواعظ، بل تحتاج إلى مشروع حضاريّ شامل أساسه الإنسان الحرّ، ووسيلته إصلاح التعليم، وغايته ترسيخ قيم الحرية والمواطنة والعقلانيّة، والوصل بين المعرفة والإنتاج، وإقامة دولة القانون والمؤسّسات. فالنهضة الحقيقيّة ليست تراكما ماديّا فحسب، بل هي، إلى ذلك، تحوّل في نمط التفكير، وفي نظرة الإنسان لذاته وللكون. ومتى أفلحت المجتمعات في إنتاج هذا التحوّل باتت بالضرورة قادرة على الانتقال من موقع المستهلك والتابع إلى موقع المبدع والمشارك في صناعة الحضارة الإنسانيّة المعاصرة.

في سياق هذه الأسئلة، ومحاولة استكشاف آفاق معرفيّة ونظريّة ممكنة انخرطت مجلّة **نقد وتنوير** منذ أعدادها الأولى بما تطرحه بين يدي القرّاء من مادّة علميّة أكاديميّة. ولم يشذّ هذا العدد الثامن والعشرون الذي تنهي به المجلّة سنتَها السابعة عن هذا التوجّه.

تضمّن هذا العدد موادّ تنتسب إلى حقول معرفيّة متنوّعة، توزّعت بين بحوث ودراسات، ومقالات، وترجمات عن بعض اللّغات الأجنبيّة، وذلك على النحو الآتي:

البحوث والدراسات، وهي: "دراسة تحليلية لسلوك الخيانة في المنظور التربوّيّ وأساليب معالجتها في ضوء الشرع والقيم الأخلاقية" و "مركزية البعد التربويّ في مشروع النهضة عند مالك بن نبي"، و"تكوين المدرسين بين المدارس العليا للتربية والتكوين والمراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين باعتباره مدخلا أساسيا للمهانة"، و"اللغة عند ب. ف. ستراوسن: من الاستلزام المنطقي إلى الاستعمال التداولي".

المقالات، وهي: "الهجرة وحوار الأديان: قراءة في نص تأسيسي"، و"الذكاء الاصطناعي في المجتمع: نحو سوسيولوجيا للعصر الرقمي"، و"الذكاء الاصطناعي وإشكالية الإتيقا: مقاربة نقدية"، و "الأدبيات الثيورجية في المنظومة الفكرية للأفلاطونيين الجدد"، و"الفلسفة الشخصانية وإصلاح الحضارة: الإنسان والعمل والقيم والفن في فكر محمد عزيز الحبابي"، و"تشظِّي حداثة عبد الله العروي: عبد الله حمودي مُتعقبًا مآزق النقد الإيديولوجي"، و"فيشته: من الأنا المطلق إلى نداء المقاومة"، و"مكانة الإشكالية الفلسفية في بناء نظرية الدولة: قراءة في مساق القانون الدستوري بالجامعة المغربية"، و"ديداكتيك اللُّغة العربيَّة وسؤال القيم: التَّربية على المواطنة أنموذجًا"، و"عقدة الأخوة في السرد العربي والغربي ملحوظات وتعليقات حول مشروع حسن المودن"، و"تمثيل صورة الشّعب في رواية" اسم العربة ... أو الرّجل الذي

تحاور مع النّار" لزيد الشّهيد (بين المرجع والتّجربة السّرديّة الجماعيّة")"، و"المفارقة صناعةً هزليّةً"، و"تحولات المرجع وترميم الغياب في رواية فتنة العروش لزوينة الكلباني: دراسة في حيل السرد"، والإنسان والآلة: من صنع الآلات وتخيلها إلى الذكاء الاصطناعي"، و "ملاحظات نقدية حولّ إشكاليّة الكمّ والكيف في البحوث الاجتماعيّة العربيّة والخليجية".

ترجمات، وهي: "علم الاجتماع في الأزمنة المضطربة"، و"الفيلسوف والمجتمع"، و"من فن الكتابة إلى فن القراءة: النموذج الشتراوسي في التأويل"، و"مَسْرَحِيَّةُ "فِي انْتِظَارِ غُودُو" لصَامْويل بِيكِيتْ: بَحْثٌ عَنْ صَدَى الْحَدَاثَةِ فِي عَبَثِيَّةِ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ".

ولا يسعنا في نهاية هذه الكلمة إلاّ أن نتوجّه بخالص الشكر والعرفان للباحثين الأكاديميّين الذي أثّثوا هذا العدد، وإلى المدقّقين والمحكّمين الذين بذلوا جهودا محمودة في المراجعة والتقييم، ولا يفوتنا أن نرفع آيات الشكر والتقدير للفريق الفنّي الذي سهر على إخراج العدد في أبهى صورة.

مدير التحرير

د. امبارك حامدي